الفنون أسرار

للأستاذ عبد اللطيف النشار

كانت غرفة المكتبة فى منزل المسيو « بنديبى » محتوية على (دواليب) قصيرة ذات طبقتين وفوق ظهورها عدد غير قليل من الصور والتماثيل الصغيرة والماديات والتحف المختلفة الأنواع والأشكال ، وكان « بنديبى » على فقره رجلاً على درجة من الأهمية لاشتغاله بالآداب والفنون ، وكانت التحف الموضوعة فوق دواليبه مجردة عن النظام والترتيب ، وكانت زوجته مدام بنديبى الضعيفة البصر تعانى جهداً فى تنظيف الدواليب وما فوقها بمكنستها الصغيرة المصنوعة من ريش النعام

وفى يوم من الأيام أدت واجبها بالمنزل وجلست مستندة إلى ذراعى مقعد كبير تنتظر عودة زوجها فعاد وعلى وجهه كل علائم الاهتمام وقال : « انظرى إلى هذه القطعة » وأشار بأصبعه إلى شىء فوق الدولاب واستمر يقول : « لقد استكشفت أن هذه القطعة الفنية تساوى مائة ألف فرنك » . فأدارت السيدة نظرها الضعيف إلى حيث يشير أصبعه ورأت طبقاً عادياً من أطباق الحساء (سلطانية) فقالت : « أحقاً إنها تقوم بهذا الثمن ؟ »

قال المسيو بنديبى : « نعم والذى قومها بهذا الثمن من أشهر هواة الماديات ، وقد رفضت بيعها مع إلحاحه فى طلبها . وماذا أفعل بالمال ؟ إننى لست تاجراً ولكننى هاو . وأذكرك أيضاً بأنى كلما اشتريت تحفة من هذه التحف كنت تقولين لى إنها حقيرة لا تساوى شيئاً ، فهل تقدرين الآن أننى كنت مصيباً لما اشتريت هذه القطعة بسبعة فرنكات ؟ »

ومن ذاك اليوم لم تكن الزوجة تجرؤ على أن تمس الطبق خوفاً عليه من الكسر . وكانت تنظر إليه فتتذكر أنه كان فى بيت جدها آنية مثله تماماً . وأنها كسرت فلم يحزن عليها أحد ، فكانت تقول فى نفسها : « حقاً إن الفن كله أسرار . وكان زوجها يقول : « أنظرى إلى بهجة لونها وإلى الرنين الذى تحدثه عند لمسها بالأصبع » . فتنظر ولكنها لا تجد جديداً فى اللون ولا فى الرنين . وكان الأولى بها أن تقول ما تعتقد ؛ فيحاول زوجها إقناعها ، وتنكشف لها الحقيقة فتعرف خطأها .

ولكنها كانت توافق زوجها إذعاناً . وكان ذلك من سوء حظها ، فإن زوجها بعد أمد قصير ولم يبق لها سر الفن الذى يعرفه هو وجامع الماديات الذى عرض عليه مائة ألف فرنك فى القطعة الأثرية . ولم تكن القطعة هى الآنية ، ولكنها تمثال فتاة كان موضوعاً خلف الآنية . وكانت تلك المسكينة لضعف بصرها تحسب زوجها يشير إلى الآنية . وبعد موته رأت مدام بنديبى أن تبيع كل ما تركه زوجها إلا الآنية ؛ واستدعت أحد الهواة فأرته المكتبة وما فوق دواليبها ، وقالت إنها تريد أن تبيع ذلك كله صفقة واحدة . وكان التمثال لسوء الحظ لا يزال موجوداً وراء الآنية ، فنظر المشترى إلى كل الأشياء فأدرك قيمة التمثال وأشار إليه وقال : « وهل تدخل هذه القطعة ضمن الصفقة ؟ » فصاحت الأرملة محتدة « الآنية ! كلا فإننى لا أبيعها ، فهى أنفس شىء عندى . إننى لا أبيع هذه الأشياء لأنى محتاجة إلى الثمن ، ولكن لأنه ليس لها لزوم عندى » . ونظر المشترى إليها وقدر أنها مجنونة ثم ينقشها ؛ واشترى التمثال بخمسين فرنكا ثم باعه بعد ذلك فى أمريكا بنصف مليون . وباعت السيدة سائر التحف والمنزل وما فيه . وأخذت الآنية معها وذهبت إلى الريف . ولاحظ خدمها الجدد وأقاربها وجيرانها أنها لا تخشى على شىء غير الآنية ، وأنها تحذرهم من المساس بها كل التحذير . وشاع فى القرية أنها تعبد آنيتها هذه ، وأن عقلها غير سليم وأخذوا يناقشونها وهى تجتهد فى طلب سكوتهم ، وتزيد فى حرصها على آنيتها وإيصاء الخدم بها ، فاستدعى أهلها طبيباً ، وسألها الطبيب عن سر هذه الآنية . فقالت : إنها مستعدة لإطلاعه على الحقيقة على شرط أن يعاهدها على الكتمان فالأمر سر عظيم ؛ وقالت : « لقد اشترى زوجى هذه الآنية بسبعة فرنكات وهى الآن تساوى مائة ألف فرنك كما قرر ذلك أحد الهواة »

قال الطبيب : « أظنك يا سيدتى تمزحين ، فإن هذه الآنية لا تساوى شيئاً وأكثر العائلات تملك نظائرها » . فقالت : « أو بمثل هذه البهجة فى اللون ؟ وهل تحدث مثل هذا الرنين ؟! »

فاضطرب الطبيب ودهش لتقتها بشىء لا وجود له ، فلم يكن للآنية لون مبهج ولا لها أى رنين . ولم يشأ مجادلتها لاعتقاده أن مرضها هو « الجنون بالفكرة الواحدة » وأنها إذا عولجت فقد تشفى . وبناء على قرار الطبيب نقلها أقاربها إلى مستشفى الأمراض العقلية ، فدخلته راضية ومعها الآنية ؛ ولم يهمها هذا الانتقال ما دامت معها هذه الثروة العظيمة ، ولم يشن أهلها عليها بها ولكنها انتقاماً منهم لكيلا يرثوها أوصت بها لمتحف « اللوفر »

ومن يدرى كم بالمتاحف من أمثال هذا الأثر ؟ أليست الفنون كلها أسراراً ؟ (عن الفرنسية) عبد اللطيف النشار

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البدوى — عابدين)